

الرَّدَّةُ وَمَوْقِفُ أَبِي بَكْرٍ مِنْهَا

الاستاذة نجدة ضماش
كلية الاداب - جامعة دمشق

العام الثامن وطوال العام التاسع كما ان مقدمات سورة التوبة من اولها الى نهاية الآية الثامنة والعشرين ، والتي نزلت في نهاية السنة التاسعة قبل موسم الحج تضمنت احكاما نهائية بالنسبة الى العرب المشركين الذين سيهملون مدة اربعة اشهر فان لم ينضموا الى الصف المسلم فسيحاربون وسيكون الله ورسوله براء منهم « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الارض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين .. » ، فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم» (١) .

كان لهذا الوعيد والاذار اثرهما في حث من بقي على الشرك من العرب على الانضمام للصف الاسلامي ،

تستخدم المصادر العربية كلمة الردة للدلالة على انتقاضه القبائل العربية اثر وفاة الرسول الكريم ، ويعتبر العديد من المؤرخين هذه الردة ارتدادا او رجوعا عن الاسلام ، ولكننا قبل ان نتهم هذه القبائل في اليمن وحضرموت ومهره وعمان واليمامة وبلاد اسد بالرجوع عن الاسلام ، يجب ان نستبين مدى تغفل الاسلام بين هذه القبائل ، الاسلام بمعنى الايمان التام والكامل كدين ونظام للحياة والجماعة من جهة ، ومدى تقبل القبائل العربية لمفهوم الدولة الاسلامية التي ظهرت بظهور الاسلام وما يتضمنه مفهوم الدولة من انصياع للسلطة المركزية من جهة اخرى .

من المتفق عليه ان فتح مكة وما اعقبه من استسلام هوازن وثقيف اثبت للعرب ان المسلمين قوة سياسية وحرية الى جانب العقيدة التي تنزلت على النبي العربي ، ولذلك بدأت القبائل ترسل وفودها منذ نهاية

قلوبكم)) (٤) ، ومن ثم ما ان انتشر خبر مرض رسول الله (صلعم) اثر عودته من حجة الوداع (وهو غير مرض موته) حتى وثب الاسود العنسي باليمن ومسيلمة باليمامة ، ثم وثب طليحة في بلاد اسد . وانه مما يلفت الانتباه ان هؤلاء الثلاثة ادعوا النبوة كما ادعتها سجاح بنت الحارس بن سويد وذو التاج لقيط بن مانسك الازدي في عمان فيما بعد ، وقد نتساءل عن السبب الذي دفعهم الى ادعاء النبوة ؟ لا شك انهم وجدوا ان في هذا الادعاء ما يكسبهم قوة ويمكنهم من السيطرة وتولي الحكم في المناطق التي ثاروا فيها ، وهو يشير كذلك الى ان هؤلاء الثلاثة وغيرهم لم يؤمنوا بمحمد (صلعم) على انه نبي مرسل ، وانما على اساس ان النبوة قد ساعدته على تحقيق سيادته وسلطانه وسلطان قريش على العرب فهذا مسيلمة ، حسب رواية البلاذري يقول لرسول الله حين اقبل مع الوفد ((ان شئت خلينا لك الامر وبايعناك على انه لنا بعدك)) ، فكان جواب رسول الله : ((لا ولا نعمة عنهن ولكن الله قاتلك)) وما ان انصرف وقد بني بني حنيفة حتى ادعى مسيلمة الكذاب النبوة وشهد له الدجال بن عنفة بان رسول الله (صلعم) اشركه في الامر معه فاتبعه بنو حنيفة وغيرهم ممن باليمامة وكتب الى رسول الله (من مسيلمة رسول الله الي محمد

واضحت القبائل التي تلكأت في اعلان اسلامها او ارسال وفود من قبلها لبيعة الرسول الكريم معرضة لغزو المسلمين حتى تقر بالاسلام وتعترف برئاسة الرسول كما كان حال بني الحارث بن كعب ، اذ بعث الرسول خالد بن الوليد في شهر ربيع الاول او في جمادي الاولى من السنة العاشرة للهجرة الى نجران وامره ان يدعوهم للاسلام قبل ان يقاتلهم ، ثلاثا ، فان استجابوا قبل منهم اسلامهم والا وجب عليه قتالهم (٢) ، كما وجه الرسول علي بن ابي طالب في سرية الى اليمن في رمضان فاسلمت همدان ثم تتابع اهل اليمن على الاسلام (٣) .

واذا قمنا باحصاء الوفود التي قدمت على المدينة في السنة العاشرة للهجرة ، لوجدنا ان عددها اكثر بكثير من تلك التي قدمت في السنة التاسعة بمعنى ان معظم هذه الوفود قدمت عندما ادركت ان لافائدة من المقاومة وان من الافضل القبول بالامر الواقع ومبايعة الرسول على الطاعة والولاء . ولكننا في الوقت ذاته لا نستطيع الانكار ان بعض افراد هذه الوفود قد اسلموا عن ايمان فحسن اسلامهم ، بينما لم يدخل الايمان قلوب الاخرين ، وشتان بين المسلم والمؤمن ، وقد اشار القرآن الى ذلك صراحة : ((قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في

الساسانية . وحدثت في هذه الفترة اضطرابات في الدولة الساسانية جعلت مركز هذا الوالي ضعيفا ، فقوي نفوذ القبائل والأمراء المحليين ، وثابروا على الحكم الساساني وحصروا نفوذه في صنعاء وما يجاورها .

فلما أسلم باذام (باذان) الفارسي واسلمت اليمن جمع رسول الله (صلعم) لبازام عمل اليمن كلها وأمره على جميع مخاليفها ، فلم يزل عاملا لرسول الله حتى مات ، ففرق الرسول عمل اليمن بين جماعة من أصحابه ، وفي روايتين للزهري أن النبي (صلعم) رجع إلى المدينة بعد ما قضى حجة الإسلام ، وقد وجه أماره اليمن وفرقها بين رجال ، وأفرد كل رجل بحيزه ، ووجه أماره حضرموت وفرقها بين ثلاثة وأفرد كل واحد منهم بحيزه واستعمل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على مابين نجران ورمع وزيد ، وعامر بن شهر على همدان ، وعلى صنعاء شهر بن باذام ، وعلى عك والاشعريين الطاهر بن أبي هاله ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري ، وعلى الجند يعلى بن أمية وكان معاذ معلما يتنقل في عمالة كل عامل (١١) .

وهكذا نرى أن الرسول رغبة في احقاق المساواة الكاملة بين العربي المسلم والاعجمي المسلم ، ورغبة منه في أن يبين لاتباعه أنه لا فرق بين

رسول الله ، سلام الله عليك ، فاني قد اشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشا قوم يعتدون » ، وكان ذلك آخر سنة عشر (٧) .

أما الأسود العنسي ذو الخمار عبهله (٨) فليس هناك من رواية عند الطبري وابن هشام تشير إلى إسلامه ، أما البلاذري فيذكر أن رسول الله (صلعم) بعث جريرا بن عبد الله البجلي في السنة التي توفي فيها الأسود يدعو إلى الإسلام فلم يجبه ، ويعلق البلاذري أن بعض الرواة ينكر بعثة النبي (صلعم) جريرا إلى اليمن (٩) .

وإذا ما درسنا الروايات المتعلقة بردة الأسود العنسي التي قضى عليها قبل وفاة الرسول الكريم ، ثم الردة الثانية التي قادها قيس بن عبد يفيث نجد أنها عبارة عن رفض لفكرة الانصياع للسلطة المركزية التي أوجدها الرسول من ناحية ورفض للمكانة التي احتلها الإبناء عند إسلامهم في المجتمع اليمني من ناحية ثانية ، والإبناء هم أولاد أهل فارس الذين وجههم كسرى إلى اليمن مع سيف بن ذي يزن ، (١٠) فلما قتل سيف تولى الحاكم الساساني أمر إدارة اليمن يساعده في ذلك أفراد القوة

عمر قال : ((اتى الخبر النبسي (صلعم) من السماء الليلة التي قتل فيها العنسي ليبشرنا ، فقال : قتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك من اهل بيت مباركين ، قيل من هو ؟ قال : فيروز ، فاز فيروز)) .

بعد مقتل العنسي عادت الامور الى مجاريها في اليمن ، ولكن ما ان وصل الخبر بوفاة الرسول (صلعم) حتى انتقضت الامور واضطربت الارض ثانية ، وفي رواية للسري عن شعيب عن سيف عن عبد الله بن فيروز انه بعد مقتل العنسي امن الامراء وتراجعوا واعتذر الناس وكانوا حديثي عهد بالجاهلية ، ولعل هذه العبارة الأخيرة تعبر اصدق تعبير عن الوضع فهم لا يزالون حديثي عهد بالجاهلية ، ولا بد من وقت حتى يستطيع افراد المجتمع كله ان يتفهموا الاسلام كدين وكنظام للحياة والجماعة (١٥) .

ونلاحظ هذا التحامل على الابناء في ردة اهل اليمن الثانية بقيادة قيس بن عبد يغوث من ناحية واعتماد ابي بكر على الابناء وعلى فيروز للقضاء عليها ، اذ عندما بلغ ابا بكر خبر ردة اليمن الثانية كتب الى وجوه اهل اليمن يأمرهم بالتمسك بالذي هم عليه والقيام بأمر الله والناس : ((.... اما بعد فاعينوا الابناء على من ناوهم وحطوهم واسمعوا من فيروز وجدوا معه ،

عربي واعجمي الا بالتقوى فانه كافا باذاًم بان جعله عاملاً له ليس على صنعاء فقط وانما على عمل اليمن كلها ، ولما مات عين ابنه شهر بن باذاًم عاملاً على صنعاء ، فلما خرج الاسود العنسي ذو الخمار عبلة بن كعب من كهف خبان ايذته مذحج وواعدته نجران وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وهما عاملا الرسول وانزلوا الاسود منزلهما ، كما وثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك عامل الرسول على مراد فاجلاه ونزل منزله ، (١٢) وورد كتاب من الاسود الى عامل الجند ومن معه : ((ايها المتوردون علينا امسكوا علينا ما أخذتم من ارضنا ، ووفروا ما جمعتم فنحن اولى به وانتم على ما انتم عليه)) . فهو يعتبر هؤلاء دخلاء ويطلب منهم التخلي عن هذه الارض التي هي ارضهم وانهم ، اي اهل اليمن ، اولى بما جمعه من اموال ، ولكن الاسود لم يعمد الى قتلهم كما قتل باذاًم (١٣)، وفي رواية البلاذري ان الاسود كان متجبراً فاستنزل الابناء واستخدمهم فاضربهم وتزوج امرأة شهر بن باذاًم (١٤) . ومما يثير الانتباه ان الرسول عندما ارسل يحنس بكتابه طلب من الابناء وليس من عرب اليمن القيام على دينهم والنهوض في الحرب والعمل في الاسود اما غيلة واما مصادمة ، وقد تم قتل العنسي على يد فيروز ، وعن ابن

احداهما الى عدن ليحملوا في البحر وحمل الاخرى في البر وقال لهم جميعا : ((الحقوا بارضكم) .

فلما سمع فيروز ما فعله قيس ، وان عوام اهل اليمن ساندوه ارسل الى بني عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة رسولا يطلب مساعدتهم في انقاذ الابناء ، كما ارسل الى عسك يستمددهم ويستنصرهم كذلك ، فاستطاعوا ان ينتقدوا غيالات الابناء ثم اجتمعوا على قتال قيس ، وانصر فيروز واضطر قيس الى الهرب ، وتذبذبت رافضتي الفنسي وقيس معهما فيما بين صنعاء ونجران : ليس في الروايات المتعلقة بهذه الزدة اشارة الى ارتداد عن الاسلام ، وانما نلاحظ رفضا للانصياع لاوامر السلطة المركزية المتمثلة بابي بكر الذي عين فيروز واليا على صنعاء وجعل للابناء مكانة متميزة في المجتمع اليمني .

ان هذا الرفض في الخضوع للسلطة المركزية نراه جليا واضحا كذلك في الروايات المتعلقة بطليحة ، والقبائل التي انضمت اليه ، ففي رواية ابي مخنف عن عبد السلام بن سويد ان خيل طيء كانت تلقى خيل بني اسد وفزارة قبل قدوم خالد فيدنو بعضهم من بعض ولا يقتتلون ، فتقول اسد وفزاره : « والله لا نباع ابا الفضيل ابدا » فتقول لهم خيل طيء : ((اشهد ليقاتلكم حتى تكنوه ابسا

فاني قد وليته)) (١٦) وعندما سمع قيس بالامر ارسل الى ذي كلال واصحابه : ((ان الابناء نزاع في بلادكم ونقلاء فيكم ، وان تركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد ارى من الراي ان اقتل رؤوسهم واخرجهم من بلادنا)) ولكن ذي الكلال واصحابه وقفوا موقف الحياد فلم يمانئوا قيسا ولم ينصروا الابناء وقالوا : لسنا مما هاهنا في شيء ، انت صاحبهم وهم اصحابك)) وعمد قيس الى مكتبة اتباع الاسود ، وامرهم بالمسير اليه ليكون امره وامرهم واحدا ، فلما اقتربت جموعهم من صنعاء تظاهر قيس بالجزع وطلب مشورة فيروز وداذويه ليعبد التهمة عن نفسه ولكي يطمئنا اليه ، ونجح قيس في قتل داذويه غيلة ، اما فيروز فقد استطاع ان ينجو بنفسه وان يتوجه مع جيشه نحو جبل خولان ، وهم اخوال فيروز .

واستولى قيس على صنعاء وجبى ما حولها واخذ يترى حتى اتته خيول الاسود . اما فيروز فانه عندما اوى الى اخواله خولان فمنعوه ، انضم اليه الناس وكتب فيروز بالخبر الى ابي بكر ، وانضم الى قيس عوام قبائل من كتب ابو بكر الى رؤسائهم ، وبقي الرؤساء معتزلين . وعمد قيس الى الابناء ففرقهم ثلاث فرق ، اقر من اقام واقر عياله وفرق عيال الدين هربوا الى فيروز فرقتين ، فوجه

الفجل الاكبر)) (١٧) . وهذا عينه بن حصن حين ارتد وانضم الى طليحة يقول : ((ما اعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين اسد وانني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة ، والله لان نتبع نبيا من الحليفين احب اليانا من ان نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد وبقي طليحة)) (١٨) .

وعندما اوثق خالد عينه وبعث به الى ابي بكر ، اخذ غلمان المدينة ينخسونه بالجريد ويقولون : اي عدو الله ، اكفرت بعد ايمانك ؟ فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط ، فتجاوز عنه ابو بكر وحقن دمه (١٩) .

وتشير رواية ابن الاثير الى ان قبائل عربية كثيرة تبعت طليحة عصبية (٢٠) ولهذا كان اكثر اتباعه من اسد وغطفان وطيء وانضمت عبس وثلعة بن سعد ومرة ، وارسلوا الى المدينة يبدلون الصلاة ويمنعون الزكاة . ولو تتبعنا اسباب ارتداد القبائل في المناطق الاخرى لوجدنا الاسباب نفسها ، فقد دانت القبائل بالولاء للرسول شخصيا واعترفت بزعامته وسيادته واعتبرته سيده الجزيرة بلا منازع ولكنها وجدت صعوبة في الانصياع لشخص آخر غير الرسول فتجلى هذا الرفض اما بالانضمام الى مدعي النبوة او برفض دفع الزكاة ، لان القبائل رأت في الزكاة

عبئا ثقيلا عليها لاتدرك معناه ، فالزكاة كانت ايام الرسول تجمع من كافة الاطراف المسلمة وترسل الى المدينة حيث يقوم الرسول بتوزيعها على المستحقين من المسلمين في كافة الديار فلما توفي الرسول نرى قرّة بن هبيرة من بني عامر يقول لعمر بن العاص عندما نزل به منصرفه من عمان : « يا هذا ، ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاثاة ، فان انتم اعفيتموها من اخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع ، وان ابستم فلا ارى ان تجتمع عليكم » (٢١) . ولذا لجأت الدولة بعد القضاء على الردة الى ترتيب آخر يتلخص في ان تجمع الزكاة من الاطراف وينفق منها على المستحقين في هذه الاطراف ويرسل الفائض بعد ذلك الى بيت المال في العاصمة ، وهذا ولا شك ارضى سكان الاطراف وهذا من ثورتهم .

موقف ابي بكر .

وقف ابو بكر من مدعي النبوة كما وقف من اولئك الذين امتنعوا عن دفع الزكاة موقفا واحدا صارما اذ ان مفهوم الايمان والدولة ووحدة كلمة العرب في الجزيرة العربية ومحو العصبية والشعور القبلي واحلال الوحدة الدينية والقومية الاسلامية محلها ، هذه الامور كلها كانت عند ابي بكر كلا لا يتجزأ ، ومن ثم قرر محاربة اولئك الذين رفضوا ان يدينوا له بما كانوا يدينون به للرسول

القصة ، وامدهم طليحة باخيه جبال فكان على اهل ذي القصة من بني اسد ومن انضم اليهم من ليث والدليل ومدلج ، وكان على مرة بالابرق عوف بن فلان بن سنان ، وعلى ثعلبة دعبس الحارث بن فلان فبعثوا وفودا الى المدينة واعلنوا لابي بكر انهم مقيمون على الصلاة ممتنعون عن دفع الزكاة فرفض ابو بكر الاستجابة الى مطلبهم ولكن ايقن بانهم سوف يهاجمون المدينة لانهم راوا من المسلمين قلة ، وهذا ما حدث ، اذ عمد فريق الى مهاجمة المدينة ليلا ، وبقي فريق بذي حسي . واستطاع المسلمون ان يردوا المهاجمين وان يتبعوهم الى ذي حسي ولكنهم اضطروا بعد ذلك الى التراجع عندما نفرت ابلهم ، فظن القوم بالمسلمين الوهن وبعثوا الى القبائل المقيمة بذي قصة ان يقدموا عليهم ، وادرك ابو بكر حرج موقف المسلمين اذ ماتعرضوا لهجوم القبائل متكافة ، فبات يتهيأ ثم خرج ليلا فما طلع الفجر ((الا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين همسا ولا حسا حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما ان بزغت حتى ولوهم الادبار)) وقتل جبال واتبعهم ابو بكر حتى نزل بذي القصة وترك بها النعمان بن مقرن مع عدد من الرجال ورجع الى المدينة ، فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم وفعلت قبائل اخرى فعل عبس وذبيان فحلف ابو بكر

(صلعم) وبما ان الذين ثبتوا مع ابي بكر كانوا قلة بالقياس الى من ارتد فان الناس نصحوا الخليفة الا يحارب الممتنعين عن دفع الزكاة ((لان العهد حديث والعرب كثير وهم شرذمة قليلة ولا طاقا لهم بالعرب)) (٢٢) ، وقد سمعوا رسول الله (صلعم) يقول : ((امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله)) ، رفض ابو بكر الاصغاء اليهم فلجأوا الى عمر عليه ينجح في اقناعه ، وخلا به نهاره اجمع ، فقال ابو بكر : ((والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم اجد احدا اقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول : ((امرت ان اقاتل الناس على ثلاث : شهادة ان لا اله الا الله ، واقام الصلاة وابتاء الزكاة ، فوالله الذي لا اله الا هو لا اقصر دونهم)) وقد حمد له عمر رايه فيما بعد وقال له ((انما فداؤك لولا انت لهلكنا)) (٢٣) .

حارب ابو بكر المرتدة جميعا بالرسل والكتب ، كما كان رسول الله (صلعم) حاربهم به ، الى ان رجع اسامة بن زيد من الشام ، الا ما كان من اهل ذي حسي وذي القصة ، اذ ان مجموعة من القبائل التي كانت قد اجتمعت على طليحة اقامت في ذي

((ليقتلن في المشركين كل قتلة وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة)) (٢٤) . وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي :

اقمنا لهم عرض الشمال فكبكوا
ككبكة الغزى اناخوا على الوفر
فما صبروا للحرب عند قيامها
صبيحة يسمو بالرجال ابو بكر
طرقنا بني عيس بادنى نباجها
وذبيان نهننا بقاصمة الظهر

كان لانتصار ابي بكر بالرغم من قلة من معه من المسلمين رد فعل على المسلمين المرتدين سواء فقد ازداد المسلمون ثباتا على دينهم في كل قبيلة وازداد لها المشركون انعكاسا من امورهم في كل قبيلة ، وطرقت المدينة صدقات بعض الاشخاص من الذين ترددوا في بادىء الامر كصفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر وكانا من عمال الرسول على تميم .

وعندما قدم اسامة بن زيد استخلفه ابو بكر على المدينة وخرج الى الربرة ليلقى بني عيس وذبيان وجماعة من بني عبد مناة بن كنانة فلقاهم بالبرق فقاتلهم وهزمهم ثم عاد الى المدينة ، فلما استجم جند اسامة قطع ابو بكر البعوث وعقد الالوية ففقد احد عشر لواء لاعد عشر قائدا ، وكتب ابو بكر رسالة من نسخة واحدة الى جميع المرتدين وبعث بهذه الكتب مع

الرسل امام الجنود ، وقد بدأ الكتاب بحمد الله والثناء عليه وذكر بعثه محمدا بالحق من عنده بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وان الله هدى بالحق من اجاب اليه وان رسول الله (صلعم) ضرب باذنه من ادبر عنه حتى صار الى الاسلام طوعا او كرها ثم اشار الى وفاة الرسول بعد ان بلغ ما امره الله ان يبلغه للناس وان الله قد بين ذلك لاهل الاسلام فقال : ((انك ميت وانهم ميتون)) (٢٥) وقال : ((وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد امان مت فهم الخالدون)) (٢٦) وقال للمؤمنين : ((وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين (٢٧) وبعد ذلك قال : ((وقد بلغني رجوع من رجعت منكم عن دينه بعد ان اقربا بالاسلام وعمل به اغترارا بالله عز وجل وجهالة لامره واجابة للشيطان ... وانسي بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وامرته الا يقاتل احدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب واقرب وكف وعمل صالحا قبل منه واعانه عليه ومن ابى امرت ان يقاتله على ذلك ولا يبقى على احد منهم قدر عليه وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلته وان يسبي الذراري والنساء ، ولا يقبل من احد الا الاسلام ، فمن اتبعه فهو

تفرقوا وانفصلوا لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين تؤتى، فامتاز أهل القرى والوادي، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر، فوقف بنو كل أب على رأيهم فقاتلوا جميعا فاستحرق القتل في أهل القرى، وثبت مسيلمة فعرف خالد أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة «(٢٩)» وقتل مسيلمة، قتله وحشي قاتل حمزة في غزوة «أحد» ورجل من الانصار، كما قتل في المعركة التي دارت بين الفريقين في حديقة الموت التي التجأ إليها بنو حنيفة عشرة الاف مقاتل (٣٠).

نجح أبو بكر خلال عام تقريبا في القضاء على حركة المرتدين فكان نجاحه تصفية وتثبيتا للإسلام ومدا له، كان نجاحه تصفية لأنها خلصت الدولة الإسلامية الناشئة من كل الشكوك التي أثارها موت الرسول والخوف من أن يتصدع البنيان بموت الباني، كما كان تثبيتا للإسلام ومدا له إلى الأطراف التي بدأ وكأنها لم تكن. قد لقت الدين كما لقت المراكز القريبة من مكة والمدينة، فكان لابد من هذه الحركة قبل أن ينطلق العرب إلى الشام والعراق، ولكن أبا بكر بقي طيلة حياته وفي كل غزواته وجهاده لا يثق بالمرتدين، ويحدثنا الشعبي أن أبا بكر «كان لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردة حتى مات» (٣١)، كما كتب إلى عماله: «لا تستعينوا

خير له ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان، فإن أذن المسلمون فاذنوا كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا عاجلوهم، وإن أذنوا أسألهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا قبل منهم، وحملهم على ما ينبغي لهم» ((. أن كل إجراء قرر أبو بكر اتخذه يبين أنه كان يريد تجنب القتال وحقق الدماء فترك المجال، مفتوحا لمن يريد التوبة، أما أولئك الذين يرفضون فمصيرهم التحريق والقتل وسبي الذراري والنساء.

بالرغم من أن أبا بكر عقد أحد عشر لواء لاجد عشر قائدا، إلا أن القائد الذي يعود له الفضل الأكبر في القضاء على أخطر حركتين بعد ردة الأسود العنسي هو خالد بن الوليد، فقد قضى على حركة طليحة واتباعه (٢٨) ونجح في القضاء على مسيلمة الكذاب ومن اتبعه من بني حنيفة، وكان مسيلمة قد هزم عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة من بعده، فوجه إليه أبو بكر خالد بن الوليد الذي أدرك أن هذه الفتنة لن يقضي عليها وتخمد جذوتها إلا بقتل مسيلمة ففي رواية السري عن سفيان، عن رجل من بني سحيم كان قد شهد القتال مع خالد قال بأنه «لما اشتد القتال وكان يومئذ سجالا إنما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين، قال خالد: أيها الناس امتازوا أي

عمر خشوة الناس على حد تعبير الشعبي « وكان رؤساء أهل الردة في تلك الحروب خشوة الناس » ، فلم تستطع فعالهم أن تقدمهم فتضعهم في مقام الدين ثبتوا على الاسلام . فلما كانت خلافة عثمان نجده يسقط عن هذه الطبقة آخر آثار العقوبات التي وضعها أبو بكر وكسر حديثها عمر « فيأذن باستعمال المرتدين استصلاحا لهم » .

وهكذا نلاحظ أن المجتمع الاسلامي نتيجة لهذه الحادثة التي تلت وفاة الرسول كاد أن ينقسم الى طبقتين ، طبقة الدين ثبتوا على الاسلام وطبقة الذين ارتدوا ، وانه كان لذلك آثاره الواضحة في استعمال هذه الطبقة المرتدة وفي الاستمانة بها . وفي ادماجها في المجتمع ، فاذا ذكرنا ان الارتداد شمل اكثر اطراف الجزيرة وأجزاء من وسطها وأنه لم يسلم منه الا هذه المناطق التي شهدت نشأة الدعوة وازدهارها ، اذا ذكرنا ذلك أدركنا عمق الآثار التي خلفتها الردة في التمييز بين هاتين الطبقتين من طبقات المجتمع الاسلامي ، غير أن الاسلام لم يقتصر على الجزيرة وانما جاوزها ، وخرج المسلمون الى هذه الاقطار التي غلبوا عليها وشاركهم عقيدتهم بعض السكان في هذه الاقطار ، ولذلك لم يحتفظ المجتمع في الحياة الاسلامية بهذا التمييز بين طبقة الدين ارتدوا

بمرتد في جهاد عدو » (٣٢) ، وكتب الى خالد بن الوليد وعياض بن غنم « ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي » (٣٣) . وبالرغم من أن وجوه المسلمين وقادتهم حاولوا أن يشوه عن خطته وأن يغيروا من رايه ، فقد ظل أبو بكر عند خطته . التي انتهجها فلا يشهد الايام مرتد (٣٤) . فلما كانت خلافة عمر لم يشأ أن تظل هذه القوى معطلة ولم يشأ أن يحرم المجتمع الاسلامي ثمرة هذا العقاب وما تركه في نفوس المرتدين من اندفاع ورغبة في التكفير ، فأذن لهم عمر أن يشاركوا في الحرب ولكن كجنود في بادئ الامر ، ثم أذن لهم أن يلوا بعض المراتب في الجيش ولكنه لا يطعمهم في الرياسة كما يقول الشعبي (٣٥) . وانما يحد سلطانهم دون المائة ويكتب الى سعد ان لا يولي رؤساء أهل الردة على مائة (٣٦) فيضطر سعد ليلة الهدير تقيدا بسياسة الدولة أن يبعث قيس بن المكشوح في سبعين رجلا فحسب ، وقد أظهر المرتدون اندفاعا مشرفا ورغبة منهم في تعويض الخطيئة السابقة بالحسنات الكثيرة اللاحقة واقبلوا على الموت اقبالا لا يعرف الهية . ويحدثنا الطبري « أن عمر ندب أهل الردة فاقبلوا سراعا من كل أوب فرمى بهم الشام والعراق » ، ومع ذلك فقد ظلت هذه الطبقة عهد

بين جيوش الخلافة وبين مناطق الارتداد ، كما حمل كثير من السبي الى المدينة ، فلما استقامت الجزيرة كلها لنظام الخلافة وولي عمر ، قال : « انه ليقيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله وفتح الاعاجم واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والاسلام الا امرأة ولدت لسيدها ، وجعل فداء كل انسان سبعة ابعرة ، الا حنيفة وكندة » . ولا شك ان عملية الفداء التي اقترحها عمر وانفذها لم تكن تخلو من معنى اجتماعي عميق ، فقد مضت أيام الخليفة ابي بكر او اكثرها في اقرار الاسلام في الجزيرة نفسها وفي الاندفاعات الاولى نحو العراق والشام ، فلما ولي عمر الخلافة ادرك بما وهب من بعد نظر انه لابد من تجنيد كل قوى الجماعة الجديدة ومن استثارة كل طاقاتها ولا سبيل الى ذلك الا في تمكين وحدتها ، ولذلك حاول ان يصفي احقادها في الجاهلية والاسلام فلجأ الى هذا الفداء الذي كان ادراكا بارعا لما يجب ان تكون عليه نفوس الذين ينطلقون في الفتوح من ود وصفاء ، وكانت كذلك تصفية لكل ما علق النفوس من آثار الهزيمة وعمل السبي .

والذين ثبتوا وانما اتخذ المجتمع بمن انضاف اليه اشكالا جديدة . بالاضافة الى هذا الانقسام الذي كاد المجتمع الاسلامي ان ينقسم اليه ، نلاحظ ان حروب الردة حققت ، مع ما رافقها من خطر على كيان الدعوة الناشئة ، نوعا من الاختلاط بين العرب أنفسهم ، فقد مضت جيوش الخلافة الى اليمن والبحرين والى عمان ونجد وانتهى الامر بها الى الظفر . ولكن هذه الجيوش لم تحقق ظفرا ماديا فحسب وانما حققت ما كان مقدر لها في طريق الوحدة فاذا الجنود لا يعودون جميعا الى بلادهم او مجتمعاتهم او قبائلهم ، وانما يظلون في هذا المجتمع الجديد الذي انشأه يمتزجون به ويختلطون معه ويشاركونه الحياة ولا تحول القبلية بينهم وبين هذه المشاركة ، اذ لم تعد القبيلة هي الرباط الاوحد ما بين هؤلاء الناس ، وانما اضحت اخوة العقيدة وصلة الدين هي الرباط الاقوى ، هذا ما نفهمه من حديث الطبري : ان العلاء بن الحضرمي قائد الجيوش التي خرجت تحارب المرتدين في البحرين « أقفل الناس بعد انتصاره فرجع الا من أحب المقام » . يضاف الى ذلك ان حروب الردة اتاحت حركة تزواج وتواصل عريضة

- (١) سورة التوبة - الآيات ١ - ٧ .
- (٢) الطبري ج ٢ ص ١٢٦ .
- (٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٢ .
- (٤) سورة الحجرات الآية ١٤ .
- (٥) الطبري ج ٢ ص ١٨٥ ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ج ٧ ص ٩٥ .
- (٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٩٧ .
- (٧) المصدر السابق ص ٩٧ الطبري ج ٣ ص ١٤٦ ، السيرة لابن هشام ج ٤ ص ١٨٣ .
- (٨) الأسود العنسي هو الأسود بن كعب من عوف العنسي ، تكنى وادعى النبوة وسمى نفسه رحمان اليمن كما سمي مسيلمة نفسه رحمان اليمامة وقال بمضهم هو ذو الخمار لأنه كان متخمراً ممتما أبداً ، ويقول بعض أهل اليمن أنه كان أسود الوجه فسمي الأسود للونه وإن اسمه عبهلة (البلاذري) فتوح ص ١١٢ .
- (٩) البلاذري ، فتوح ص ١١٢ .
- (١٠) المصدر السابق ص ١١٤ .
- (١١) الطبري ج ٣ ص ٢٢٨ .
- (١٢) الطبري ج ٣ ص ١٨٥ .
- (١٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٨٥ .
- (١٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١١٤ .
- (١٥) الطبري ج ٣ ص ٢٩٣ .
- (١٦) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٢٢ .
- (١٧) الطبري ج ٣ ص ٢٥٥ .
- (١٨) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٧ ، كان بين أسد وغطفان وطيء حلف في الجاهلية ، فلما كان قبل بعث النبي (صلعم) اجتمعت أسد وغطفان على طيء فآذاحوها عن دارها ووثونها وجديلتها فكره ذلك عوف فقطع ما بينه وما بين غطفان وأرسل عوف إلى الحيين من طيء فأعاد حلفهم وقام بنصرتهم واشتد ذلك على غطفان .
- (١٩) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٠ .
- (٢٠) ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٢٣ .
- (٢١) الطبري ج ٣ ص ٢٥٩ .
- (٢٢) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٣ .
- (٢٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣ .
- (٢٤) الطبري ج ٣ ص ٢٤٦ .
- (٢٥) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٥٠ سورة الزمر : ٣٠ .

- (٢٦) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥. سورة الانبياء : ٣٤ .
(٢٧) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥. سورة آل عمران : ١٤٤ .
(٢٨) هرب طليحة بعد أن خذله الله حتى لحق بأعمال دمشق ونزل على آل جفنة ، ثم اسلم وقدم مكسة
معتمرا ، ثم خرج الى الشام وجاهد وشهد اليرموك وشهد بعض حروب الفرس - تهذيب ابن
عساکر ج ٢ ص ٩٣ .
(٢٩) الطبري ج ٣ ص ٢٩٢ .
(٣٠) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٩٤ .
(٣١) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥ .
(٣٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤١ .
(٣٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤٧ .
(٣٤) الطبري ج ٣ ص ٣٤٧ .
(٣٥) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥ .
(٣٦) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٥٧ .



مكتبة جامعة القاهرة